العرب
الأربعاء 2021/09/22
السنة 44 العدد 12187

عراقة النخيل وأصالته لا تلغيان حداثة طرحه الفني

منطق النخل العراقي يفرض معانيه في أعمال تشكيلية عربية

لا يخفى على أحد في هذا الزمن الذي نعيش فيه، لاسيما في المنطقة العربية، أن رسم الأشجار والجبال وسائر عناصر الطبيعة يعتبر، وبشكل كبير، ضربا من ضروب "الرجعية" الفنية. ولكن لحسن الحظ أن العديد من الفنانين التشكيليين العرب المعاصرين لم يرضخوا لهذه الترهات، بل تبنّوا "منطق" النخيل العربي بشكل عام، والنخيل العراقي بشكل خاص.

شخصان/ نخلتان لا رأس لهما (لوحة للعراقي مؤيد محسن)

ميموزا العراوي
ناقدة لبنانية

منذ بضعة أيام دار حديث بيني وبين أحد مقتني الأعمال الفنية ليتمركز حول فكرة محدّدة، وهي حسب رأيه "لا جدوى، لا بل من التفاهة رسم الأشجار، لاسيما في منطقتنا العربية في زمننا التكنولوجي المتطوّر/ الافتراضي/ المتعالي والمتفوّق على عناصر المادة".

وكان الحديث يتناول بشكل خاص أشجار النخيل في اللوحات الفنية المخضرمة والمعاصرة.

معان ورموز

أغلب الظن، مع احترامي لرأي مقتني الأعمال الفنية، أنه غير مُدرك أن كل موجودات الكوكب، تلك "التافهة" أو المهمة التي صنعها الإنسان أو خلقها الواجد تعالى كانت ولا زالت عرضة للتبدّلات في النظرة إليها واستثمارها معنويا، وتاليا في طريقة وهدف نقلها إلى اللوحات أو تشخيصها في أعمال فنية بداية باللوحات التشكيلية وصولا إلى التجهيز الفني والفن المفاهيمي والديجيتالي والافتراضي وغيرها.

وربما غفل الصديق/ المُقتني للأعمال الفنية أنه ليس المُصنّف بالتافه إلاّ ما هو غير المُحمّل بالمعنى، أو غير المُجسّد أو المُختصر لأهمية "مبدئية" مُباشرة لم تنتظر ولن تنتظر من الإنسان أن يُغنيها، لأنها فقدت أهميتها، أقله قيمتها الغذائية.

كل أشجار الكوكب، وعلى الأقل أغلبها، مُحمّلة بالمعاني التي "عاشها" الإنسان كحالة أكثر ممّا زرعها أو اكتشفها أو أعاد ابتكارها خياليا وفقا لقناعاته وتجاربه وميوله الذوقية.

ظهرت تلك الأشجار في أعمال فنانين تشكيليين امتازوا بأساليب فنية مُختلفة بداية من لوحات رواد الفن التشكيلي.

ليست النخلة أو شجرة البرتقال أو شجرة الزيتون في أعمال الفنانين المخضرمين والمعاصرين نخلة أو شجرة برتقال أو شجرة زيتون فقط، بل هي المعنى المُراد التعبير عنه والمكان المحال إليه والذي لا يظهر حُكما في حدود اللوحة.

أما "الادعاء" أن فن التصوير الفوتوغرافي أطاح بحجة بقاء الفن الواقعي فكذبة كبيرة. أولا، لأن "الواقع" لم يعد موازيا "للحقيقة". فهو التباس شديد الخطورة في زمننا هذا، كما أن الحد الفاصل بين الخيال والواقع أصبح هشا و"تافها"، لذلك لم يخسر "الفن الواقعي" شيئا من أهميته وقدرته على فتح آفاق البصر والفكر والحساسية. وأصبح رسم جزء من أي وجود كان رسما لكلّه وإفصاحا عن ماهيته مع ترك مجال للمُشاهد لأن يستكمل ما نقص شكليا: نوع من الاختصار والتقشّف يليق بانكماش الزمن وتسارع عجلات الوقت.

وثانيا أن الغرائبية في الفن التشكيلي العربي والغربي على حد السواء (الذي يثني عليه الصديق/ المقتني للوحات) لم تعد تقتصر على عالم شيّده الخيال، بل صارت تشمل "الواقع" المعاصر والملتبس.

واتسع معنى الغرائبية اتساعا شديدا وصارت الغرائبية في أعمال لا تحصى مسارا ولغة تعبّر ليس عن عالم خيالي بل عن واقع بحت (كشجرة نخيل مثلا)، كما نراها في لوحات الفنانة التشكيلية العراقية ليلى كبة كعوش التي تتكسّر وتنتشر في آن واحد في معالم لوحتها، فلا يعود الموت موتا ولا الحياة حياة بل مجرّد التباس واختلاف في النظرة.

ونرى الغرائبية في لوحات الفنان العراقي ماهود أحمد الذي توفّي منذ بضعة أشهر تاركا وراءه لوحة حمّال النخلة المقتلعة التي هي أكثر من شجرة بكثير، والفنان التشكيلي المصري حسين بيكار ونخيله المُشار إليه باختصار شكليّ شديد لأنه بكل بساطة نخيل، لقيمته الرمزية، غنيّ عن التعريف.

ونجد تلك الغرائبية الحديثة في مجمل أعمال الفنان التشكيلي العراقي الغرائبي/ الواقعي جدا مؤيد محسن، ونذكر لوحته التي تضم شخصين/ نخلتين لا رأس لهما، ولكنْ لديهما احتضان وجسدان زرقاوان طغيا على سوداوية الخلفية والمشهد بشكل عام. وأيضا لا يظهر إلاّ مُحملا بتعدّدية احتمالاته ومحاكاته لافتراضية تستطيع أن تنشأ لحظة موتها والعكس صحيح.

وليست أشجار النخيل اليوم في اللوحات والأعمال الفنية المعاصرة المُختلفة الأساليب أقل أهمية ودلالة ورمزية من أشجار الزيتون والبرتقال والصبّار حين تظهر في الأعمال الفنية الجدّية، إذ تتوقّف تلقائيا عن كونها جزءا من مشهد طبيعي فحسب لتصير موقفا، أو وتيرة تصعيدية، أو سلاما أبديا، أو حصنا حصينا، أو إشارة إلى غارسيها وأهلها ومحبيها والحالمين إلى اليوم تحت ظلالها.

غرائبية لا تموت

في سياق آخر حفل عالم الفن المعاصر بمعارض تشكيلية وتجهيزات فنية وفنون افتراضية ومفهومية ونحت ضوئي استُوحيَت ليس فقط من "أشكال" النخيل، ولكن أيضا من مضامينه العاطفية والتاريخية والفلسفية والروحية، وتلك المتعلقة بهموم الهوية العربية والعراقة الضاربة جذورها في التاريخ.

> **ليست أشجار النخيل في الأعمال الفنية المعاصرة أقل أهمية ودلالة ورمزية من أشجار الزيتون والبرتقال والصبّار**

للصديق/ المقتني للأعمال الفنية الحداثية والمعاصرة ولكل من شدّ على مشدّه لناحية "تفاهة" رسم النخيل وغيره من العناصر الطبيعية، أقول على الفنان العربي مهما بلغت به الحداثة أن يحافظ في عمله الفني على ما أوّد تسميته بـ"منطق النخيل العراقي"، أي أن يبقى طائرا صلبا بإرادته وبعنقه الغليظ الموشّح بألوان طيور الأهوار المُهدّدة، وخافقا بجناحيه ارتفاعا وانخفاضا على سطح هدير الحداثة تماما كما يفعل سعف النخيل حين تعصف به الريح.

لوحة حمّال النخلة المقتلعة للعراقي ماهود أحمد.. رمزية موجعة

وهو منطق أحبّ أن أصفه بـ"العراقيّ"، لأنه حضاري سحيق وعارم، ولأنه الأشدّ تعبيرا عن كل ما يمكن أن تعنيه النخلة من معان ومواقف ومشاعر وتبدّل قسري وغير قسري في أسلوب العيش، وكل ذلك تحت تهديد مُمتقع سببه التلوث والحروب، والهجرة القسرية والدماء الزكية المهدورة وزحف المدينة على المساحات الخضراء/ الفردوسية، والهجرة من الأرياف بسبب ضيق سبل الحياة ولأسباب سياسية موجعة.

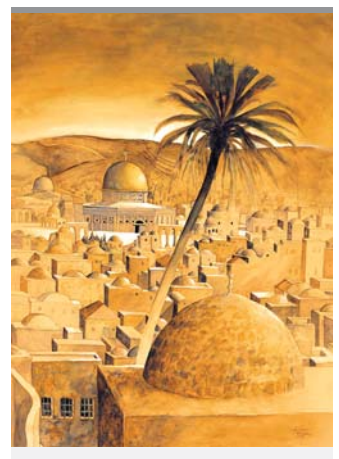

للنخل مضامين تاريخية وفلسفية وعاطفية وروحية، وأخرى متعلقة بهموم الهوية العربية والعراقة الضاربة جذورها في التاريخ

«الرُحّل المستقرّون» معرض فوتوغرافي يتتبّع هجرة غير شرعية أبطالها أطفال

عمّان - تقدّم الفنانة الإيطالية أنيزي بورغاتوريو في معرضها "الرُحّل المستقرّون"، أعمالا فوتوغرافية تتناول موضوع النزوح والهجرة إلى أوروبا، من خلال أسلوب فني ينأى عن صدم المشاهد أو إحداث ردة فعل قوية لديه.

والمعرض الذي يحتضنه المتحف الوطني الأردني للفنون الجميلة، ويستمرّ حتى السادس من أكتوبر القادم تعرض من خلاله بورغاتوريو مشاهد فوتوغرافية ملتقطة وأخرى مركّبة تدفع إلى التفكير وتحرّض الذهن على التساؤل، متجنّبة المشاهد المؤلمة أو الجارحة. وهي في سبيل تحقيق ذلك لا تركّز على رحلة النزوح والهروب الطويلة، بل على البلد التي حطت هذه الرحلة في رحابه.

وتُظهر الفنانة الإيطالية في صورها وصول النازحين إلى وجهتهم، وأبطالها الرئيسيون هم الأطفال، الذين يجدون أنفسهم في الغابة ولا تبدو عليهم علامات الإرهاق أو التعب الجسدي، لكن ثمة في محيطهم ما يُشير إلى صعوبة الرحلة التي اجتازوها؛ والمتمثلة في بقايا قوارب صدئة ومتشقّقة، وقوارب مليئة بسترات النجاة التي تحمي من الغرق خلال الرحلات المائية.

وتذكّر خلفيات بعض الصور التي تُظهر جماليات الظل والضوء وانعكاسها على أشجار الغابة، بالرحلات "الأسطورية" للسفن عبر التاريخ البشري.

وفي إحدى الصور، تظهر فتاة كما لو أنها حارسة الغابة الطيّبة بينما الحمائم البيضاء ترفرف حولها، وخلافا للمشهد السحري في الخلفية تظهر في مقدّمة الصورة طفلة تخبّئ وجهها بكفّيها وهي تبكي، وهو ما يُثير المشاعر لدى المتلقي الذي يستشفّ من شكل الطفلة وهيئتها صعوبة الرحلة وأثرها النفسي عليها، ذلك أن وصول القوارب إلى برّ الأمان لا يعني النجاة من رعب التجربة.

وفي صورة أخرى نرى طفلا وطفلة يقفان قرب شاطئ البحر وينظران إلى القارب الذي وُضعت بجانبه شبكة صيد، وهي صورة رُكّبت من العديد من الصور، ففي نظرات الطفلين الوادعة على زاوية الصورة، ثمة في منتصف الصورة قارب شبه مُتهالك، وهو ما خلق حالة شعورية مُتضادة.

وفي صورة تركيبية أخرى، تظهر طفلة مستندة إلى جدار، بينما تحضر في مقدّمة الصورة غرفة لبيت متصدّع وقارب كأنه مصنوع من الصخر. وتؤدّي الألوان الترابية في هذه الصورة دورا مهما في تسريب الشعور بالبؤس واليباس والخوف إلى نفس المتلقي، لكن ثمة دائما نافذة لمرور الضوء في غالبية صور الفنانة، رمزا للأمل.

وتجسّد إحدى الصور طفلة لم تصل إلى وجهتها بعد، وهي تقف وسط الغابة شاعرة بالحيرة والارتباك لعدم قدرتها على تحديد الطريق الذي ستسلكه، مرتدية ملابس تتناسب مع الطقس البارد، ويبرز هنا التباين في الألوان بين الأوراق الخضراء المحيطة بالطفلة وبين سترتها الحمراء، ما يجعلها تشكّل نقطة جذب بصرية قوية في الصورة رغم أنها تقف على الطرف وفي الخلفية، بينما تظهر في المقدّمة صورة القارب المتآكل.

وتنظر الطفلة إلى القارب نظرة عميقة ذات دلالة، كأنها تُسائل من خلالها ماضيها في الوقت الذي لا تعرف فيه أين ستقودها خُطاها في المستقبل؟

وفي مشروع "الرُحّل المستقرّون"، يُفهم موضوع عبور الحدود أو المعابر الحدودية على أنه مكان عبور نموذجي، حيث يتمّ الخلط بين ما هو ذاتي وجماعي وما هو دولي وتختلط القضايا في تزامن لا يمكن تصوّره.

وتصوّر الفنانة الإيطالية ذهول البشرية في طريقهم الصعب للجوء على الرغم من العيش في عصر الانتقال السهل، حيث إن الحدود المفروضة والظروف التي يواجهها الراحلون من أوطانهم تبدو لا إنسانية بالمرة، وتتجاوز صور بوغاتوريو حكاية التاريخ ورصد الأحداث لتُعيد بناء صورة تتجاوز وتزيح وتفكّك الواقع والحدث والعناصر لتنفذ بالمُتلقّي إلى عالم التساؤل والمساءلة.

> **خلفيات بعض الصور الفوتوغرافية الملتقطة من الفنانة بورغاتوريو تذكّر بالرحلات الأسطورية للسفن عبر التاريخ البشري**

وتتّسم أعمال بورغاتوريو بالإيقاع السحري والسريالي، وهي تذكّر بالحكايات الأسطورية والخرافية، وتنثر في الغابة مفردات لا يمكن توقّع وجودها أو الحدس به، انطلاقا من أن الغابة الجهة الأولى التي يحطّ بها المهاجرون، والمكان الذي يتوقّفون فيه بانتظار الخطوات اللاحقة، ممّا يعني بالضرورة توقّع حدوث أيّ شيء، بما في ذلك القرارات التي قد تكون مخيبة لآمالهم.

ويأتي معرض "الرُحّل المستقرّون" ضمن فعاليات مهرجان الصورة - عمّان في دورته التاسعة، وبتنظيم من المتحف الوطني الأردني للفنون الجميلة والسفارة الإيطالية في عمّان ومعرض بودبيلسكي للفن المعاصر.

ويمثّل المعرض تصوّر الفنانة الإيطالية أنيزي بورغاتوريو لمهرجان الصورة عمّان للعام الحالي، حيث إن الأعمال التي جمعتها في هذا المعرض هي مقترحة بتنوّع خاص على حد سواء، كمجال للتجارب التقنية، وكمكان للتشكيك في دور الصورة، وفي الوقت نفسه تعزّز وتزيد من جاذبية معينة لمحتوى المشاركة العاطفية العميقة.

وأنيزي بورغاتوريو فنانة إيطالية ولدت في مدينة باري وتعيش بين بلغراد وبيروت، وهي نشطة في مجال تركيبات التصوير الفوتوغرافي والفيديو، والكولاج التناظري والرقمي، وينعكس بحثها على الذاكرة وإعادة بناء الروايات الشخصية والجماعية، سواء من خلال العرض أو من خلال المواد الأرشيفية التي يتم التدخّل فيها: النظر إلى ما وراء اللقطة والقلب والاقتراب والتعليق وإعادة البناء وتحويل النظرة.

صورة مركبة لطفلة وقارب وما بينهما من أهوال